في سبيل ثقافتنا العامة : ١

البكالوريا اللبنانية والتعليم العصري

بقلم فؤاد افرام البستاني
أستاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

١

توحيد النزعات بتوحيد التعليم

ما من مفكر عصري اهتمّ بتثقيف الناشئة في بلادنا الّا شعر بضرورة الاصلاح في طرق التعليم واساليب التهذيب ، وبالاعتماد في ذلك على قواعد جديدة تتفق مع عقليتنا القومية من جهة ، وتوافق روح العصر الذي نعيش فيه من جهة اخرى.

تتفق مع عقليتنا القومية بان تسعى في توحيد النزعات والميول المختلفة في شعبنا باختلاف عاداته الفكرية ، المتباينة بتباين مؤسساته العلمية ، المتماسكة احياناً بتماسك طرق التثقيف التي شبّ عليها . والتي لا دواء لها الّا تقريب اساليب التفكير بعضها من بعض ، وتدريب الافكار العامّة شيئاً فشيئاً على السير في طريق واحد ، هو طريق الوطنية الحقّة تخطّه الحكومة الرشيدة وتمهّده لارباب المدارس ، فيسيّرون عليه من عهد اليهم بتنشئتهم من ابناء اليوم ورجال الغد.

وتوافق روح العصر الذي نعيش فيه بان تصرف الطالب عن اضاعة الوقت في استظهار ما لا فائدة منه اليوم الى مجال الحياة العصرية يراقب مظاهرها ، ويطبّق عليها ما درسه من المبادئ العامّة ، فيستقري ويستنتج ما لا بدّ له من معرفته في هذا العصر . وهكذا تعدل به عن حشو دماغه بالقوالب الفارغة ،

والتعابير المبتذلة، والمعارف السطحية التي، ان تنفعه، ففي القريب العاجل، الى الاهتمام بالتفكير الشخصي المنتج الذي يهذب الذهن ويمدّه، بتؤدة وتسديد، الى صواب النظر ودقة الاحكام؛ وبكلمة واحدة تنتقل به من شغل الذاكرة الى إعمال العقل.

واذا تضافرت هذه المبادئ، وسارت متنافسة، على طرق مختلفة ان شاءت، ولكن الى غاية واحدة، وصلت الى مثال اعلى لطرق التثقيف كثيراً ما تُقنا اليه، ففزنا بتلك الضالّة التي طالما نشدناها وننشدها ايضاً الا وهي وحدة التفكير.

وحدة التفكير سابقة في كل شعب وحدة الميول والنزعات. وما وحدة الميول والنزعات الا قاعدة العاطفة الوطنية وأساس النشأة القومية. اما هذه فالوقت كفيل باعدادها وانضاجها على مهل، اذا ما حُقّقت الاولى. واما الاولى فلا تُنال الّا بتوحيد التعليم.

ونحن اذا ما ذكرنا التعليم في هذا المقال، لا نريد به الّا التعليم الثنوي الذي يتناول افضل ما في الأمة من النزل، فيعدّها على اسلوب هو موضوع بحثنا، ويوصلها إمّا الى معاهد التعليم العالي من هندسة وحقوق وطبّ وصيدلة، او الى المراكز العالية في الحياة من ادارة، وسياسة، واجتماع. اما التعليم الابتدائي فلا يدخل في بحثنا. لان اربابه لا يرمون، في تنشئة طلّابهم، الى ابعد من ان يوفّروا لهم ما يلزم من المعدّات حتى يعيشوا حياةً قد تكون وافرة الرخاء، ولكنها لا تكاد تؤثر في حياة غيرهم من الافراد من حيث الثقافة العامة. فيكون اهتمام ارباب المدارس الابتدائية، والحالة هذه، منصرفاً اكثره الى ان يجمعوا في دماغ التلميذ كمّية وافرة من المعلومات دون ان يكترثوا لكيفية اساغة هذه المعلومات، الّا فيما ندر. وفضلاً عن هذا الفرق الجوهري بين التعليم الابتدائي والتعليم الذي نرمي اليه في مقالنا، فرق عملي حدّدته الحكومة فكفتنا مؤونة البحث فيه، اذ قرّرت منذ السنة ١٩٢٥ انشاء شهادات خاصّة بالتعليم الابتدائي من بسيط وعالٍ، وهي المعروفة بالشهادات الاعدادية (Certificats) والتكميلية (Brevets).

فوضى التعليم في بلادنا

على ان هذا الفرق الجوهري بين التعليم الابتدائي ، بسيطاً كان او عالياً ، والتعليم الثنوي المحدَّد اعلاه ، قلّما اكترثنا له في بلادنا. فما زلنا حتى السنوات الاخيرة نخلط في اساليب التعليم ، وفي موادّه ، وفي نعوت المعاهد ايضاً . فكثرت عندنا «الجامعات» ، وتعدّدت «الكليات» ، واصبح اقل المعاهد خطراً «مدرسة عالية» ؛ فضاعت الميزات الفارقة بين الالقاب الضخمة .

ووافق ذلك اقبال غريب على العلم ، ايّاً كان اسلوبه وايّة كانت صفته ، فغدا الطلّاب يسيرون على غير هدى في اقتباسهم المعارف ، فيجدّون ويجتهدون في حشو ذاكرتهم بسرعة عجيبة ، معتقدين انهم سوف لا يخرجون من المدرسة حتى تفتح لهم ابواب الحياة على مصاريعها فيدخلون منها الى حيث يشاؤون . واضحى آباؤهم يجارونهم في هذا الامل ، فيضحّون بالرخيص والغالي في سبيل تعليم ابنائهم ، معلّلين النفس بالتعويض الكبير اذ يخرج اولادهم من المدارس حاملين الشهادات الفضفاضة ، طامحين بابصارهم الى اعلى مناصب الاجتماع . حتى اذا طرق هؤلاء الطلاب بشهاداتهم ابواب المعاهد العليا ، فأُقفلت في وجوههم ؛ فتحوّلوا الى الفحص الثنوي ، فسقطوا فيه لنقص في استعدادهم وسوء هضم في معلوماتهم ؛ فتململ الاهل والاولاد في نشوة كثيراً ما كانت غرّارة وكثيراً ما آلت بغروزها ، ولكن قليلاً ما استفاد منها حتى المتألمون . . .

كل ذلك مصدره فوضى التعليم في بلادنا ، الناتجة عن افتقارنا الى مقياس مشترك تُعرض عليه برامج المعاهد المختلفة . فيُقرّ منها ما كان ثنوياً حقّاً ، ويُترك غيره ليطبق في محيطه الخاص لا يتجاوزه الى غيره من انواع التعليم . وتُقاس به معارف الطلّاب فينال الناجح منهم الشهادة الرسمية المؤذنة بانتهاء دروسه الثنوية .

ولربّ معترض يقول : أوَ نحن بحاجة الى شهادة جديدة فوق ما عندنا من الشهادات ؟ وهذه معاهدنا العديدة فايّ منها لا يُعطي الشهادات الكافية ؟

فنُجيب : وما قيمة هذه الشهادات الخاصة التي تُعطى احياناً دون فحص ، وعادةً بعد فحص بسيط يقوم به معلّمو المدرسة ؟

ما قيمة شهادة خاصة تكاد تكون مشاعاً لجميع الطلّاب ؟ وهل تعرفون معهداً واحداً يرفض شهادته ، الّا في النادر ، لطالب قضى بين جدرانه عدّة سنين ؟

ما قيمة شهادة لا تسجلها هيئة رسمية تتبع برنامجاً معروفاً يُقيّد الجميع بالسير عليه ؟

امّا نحن فلا نرى لهذه الاسئلة سوى جواب مؤلم يُظهر تلك الشهادات — المكتوبة بعضها بابلغ ما يُعرف من اوزان التفضيل وامثلة المبالغة — بقيمتها الحقيقية ، اذ يتقدم بها الطالب فخوراً الى الادارات العمومية ، فلا يؤبه لها . فيتأثر ويغتاظ ، ثم يلين ويرجو ؛ فيشير عليه المدير بان يقدّم الفحص كما لو لم يكن معه شهادة ، فيتقدم ، ويسقط على الغالب . فيحنق ويقنط ، ثم يبدأ بدوراته على ابواب المصالح واثقاً ، واهله واثقون معه ، ان من واجب الهيئة الاجتماعية ان تعوله لانه « متعلم » ومعه « شهادة » .

وهكذا يزداد في بلادنا عدد من اضرّهم العلم ، بل الغرور بالعلم ، فاخرجهم عن طبقاتهم ، وتركهم ، بين ما يستحقون من المراكز وما يطمحون اليه ، ابداً متقلقين . وقد يكون بينهم من يستطيع التعبير عن افكاره ، فيكتب ، ويكتب ، ولا يملّ ، مالئاً الصحف باحتجاجاته على المحاباة في الفحوص ، وعلى المراعاة في التعيين ، وعلى النظام الاجتماعي كله ، لا اكثر ولا اقل . . . وهو لو انصف — واتى له ان يرى الانصاف ! — لخفّف من حقده على المجتمع ، ولخصّ باللوم اولّا نفسه التي لم تشأ الافاقة من غرورها ؛ وثانياً تلك الشهادات الطنانة التي لا يمكنها ان تنيله ما يشاء لانها لا تُمثّل ما يُطلب منه من المعارف . وما ذاك الّا لكونها لم تعطَ على اثر امتحان رسمي تُعرض فيه معلوماته على قياس معروف في برنامج مقرّر . . .

* * *

العناية باللغة العربية ، وبتاريخ البلاد وجغرافيتها

وسببٌ ثالث كان من الدوافع الى تأسيس البكالوريا اللبنانية هو العناية باللغة العربية . نقول هذا ونعني باللغة العربية ، لا تلك المجموعة العادية لمختلف « اللغات » والشواذ ، ولا ذاك المتحف الغريب لانواع السجع والجناسات ، ولا ذاك الكشكول المضحك للجوازات النظمية وما يلحقها من علل وزحافات؛ بل نعني باللغة العربية مجموعة نفيسة لآثار شعوب مختلفة نشأت وتطورت في مدة اربعة عشر قرناً ، فكونت ادباً من اغنى آداب الشعوب تنوعاً وابتكاراً ؛ نعني بها أداة مرنة للتعبير عن المعاني العصرية التي لا تألو تطوراً وتشعباً كلما تعددت حاجاتنا ، ودقت اساليب تفكيرنا.

هذه اللغة التي نفهم ، والتي نريد ان نفهمها الغير ، لم تكن تدرس في بلادنا بالنوع الذي يقتضيه العصر ، على الرغم من بذل الاساتذة والطلاب جهودهم في استظهار الفية ابن مالك ، وحفظ مقصورة ابن دريد ، وشرح رسائل الصابي والخوارزمي وتفسير معجزات الحريري ، وخوض جميع البحور النظمية ...

كانوا يشرحون جثثاً قد يفيد درس اعضائها لفهم وظائفها ، ولكنه ليس بالغاية المتوخاة ؛ فاراد العصر ان ندرس هياكل حية يترقرق فيها الجمال ، فنعجب بالفن ونقترب منه في آثارنا.

هذا ما نفهمه بالعناية باللغة العربية ، وهذا ما فهمته لجنة البكالوريا اللبنانية ، لاسيما بعد ان تقرر الغاء برنامج البكالوريا الفرنسوية القديم ، والسير على برنامج جديد ، اعتباراً من دورة حزيران سنة ١٩٢٩ . والسر في تأثير هذا البرنامج الجديد في تأسيس البكالوريا اللبنانية ، هو ان البرنامج الفرنسوي القديم كان يعتبر اللغة العربية بمثابة لغتين فرعيتين ، فيبقي مركزها عالياً في بلادنا ، لان العلامات المعطاة لها في الامتحان كانت تعادل العلامات المعطاة للغة الفرنسوية المعتبرة لغة واحدة ولكن أصلية . اما البرنامج الجديد فانه لا يعتبر لغتنا الّا لغة فرعية واحدة ، اي ان الطالب من بلادنا المرشح لنيل البكالوريا

الفرنسوية يلزمه ، اعتباراً من دورة حزيران ١٩٢٩ — وللطالبات اعتباراً من دورة حزيران ١٩٣٠ — ان يُتقن فضلاً عن اللغة الفرنسوية الاصلية ، لغة اخرى فرعية مع اللغة العربية . فتكون النتيجة ان هذه اللغة المنكودة الحظ اصبحت على نصف ما كانت عليه في البرنامج القديم . فترى ، والحالة هذه ، كم كان موافقاً تأسيس البكالوريا اللبنانية . . .

هذا فضلاً عن الحاجات العديدة التي كان يشعر بها كل متعلم من بني قومنا في ما خصّ تاريخ البلاد وجغرافيتها ، والتي لم تكن تقوم بها البكالوريا الفرنسوية . فكم من الحائرين عليها يسردون لك عن ظهر قلبهم سلسلة ملوك فرنسة ، وجميع مواقع حروبهم حتى البسيطة منها ، وهم لا يكادون يعرفون شيئاً عن صلاح الدين او بشير الكبير ، ولا عن مواقعهما الشهيرة ؛ يتلون عليك ، دون تردّد ، اسماء جميع انهر فرنسة وسواعدها الصغيرة ، ويشيرون الى كل محطات القطار ومواقفه من ليون الى باريس ، وهم لا يكادون يعرفون اسماء انهر بلادهم ، ولا المحطات المهمة بين بيروت ودمشق ؛ يحدّدون امامك بكل دقة ووضوح المقاطعة والمديرية التي تقع فيها قرية « غلوزل » الصغيرة ، حتى اذا سألتهم عن موقع « العاقورة » مثلاً ، تفرّسوا فيك حائرين وتساءلوا متردّدين هل هي في كسروان ، ام في الكورة ، ام في الشوف ؟ هذا على فرض انهم سمعوا باسماء الشوف والكورة وكسروان ! . . .

. . .

في سبيل توحيد الميول والنزعات ، وفي سبيل حسم فوضى التعليم الحاضرة ، وفي سبيل العناية باللغة العربية وبتاريخ البلاد وجغرافيتها ، عملت جمهوريتنا فاسست البكالوريا اللبنانية !

فهل كان برنامجها موافقاً ؟ وهل تنجح في الوصول الى هذه الغاية المثلثة ؟ هذا ما سندرسه في مقالٍ آخر .

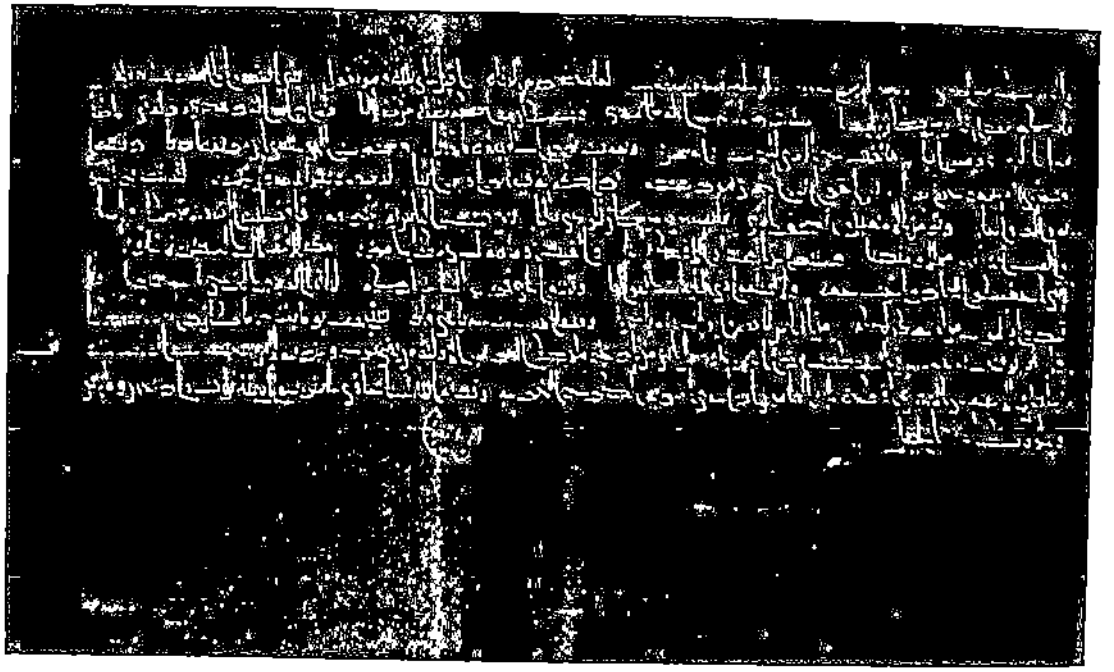

صورة الرقّ الاخير من مخطوطة باريس ٦٧٢٣